بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقُولُ الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٨١)

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾

(النور:٥١، ٥٢)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدريّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ أنّ رسُول الله صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّم قال : «. . . **أَلاَ لاَ يَمْنَعَنَّ رَجُلاً مَهَابَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْحَقِّ إِذَا** عَلِمَهُ»[1].

(١) رواه الترمذي ، وابن ماجه وأحمد . وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (١٦٨) وفي صحيح وضعيف سنن ابن ماجه رقم (٤٠٠٧) وفي صحيح الترغيب والترهيب رقم (٢٧٥١).

obeikandl.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ٢-٤).

﴿ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝١٤ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

(الحديد: ١٢-١٥).

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

أمّا بعد ، فإنّ علاقاتِ النَّاسِ بعضهم ببعضٍ لتتعدّد وتتنوعُ وقد جعل الله تعالى من بينهم نسبًا يربطهم ببعضٍ ، وحثّ الهَدْيُ النَّبويُّ على أن يتعلَّم النَّاسُ من أنسابِهم ما يصِلون بِه أرحامَهم

روى الترمذي في كتاب (البر والصلةِ) من جامعه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِى الأَهْلِ مَثْرَاةٌ فِى الْمَالِ مَنْسَأَةٌ فِى الأَثَرِ ».

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ[1] .

---

(١) ورواه أحمد في مسنده من حديثِ أبي هريرة ، والطبراني في المعجم الكبير . والحاكم في المستدرك وصَححه ، وصححه الألباني في صَحيح وضعيف سنن الترمذي . حديث رقم (١٩٧٩) وصحيح==

وأهلُ الحكمةِ على أنَّ العلمَ رحمٌ بيْن أهلِه ، فنسبُ العِلم بيْن العالمِ بكتابِ الله تعالى وبسنة نبيه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم وتلامِيذِه أوثقُ وأبْركُ وأشرفُ من نسبِ الأصلابِ، وهذا ما جعل كلَّ عالمٍ يعرفُ قدرَ ما اصطفاه الله تعالى بِه من العِلم ، ويعلمُ فضلَ ما حمّله الله تعالى من نور العلمِ حريصًا على أنْ يتّخذ له مِن التَّلاميذِ مَن يغرسُ فيهم ذلك العلم ، ليراه قائمًا في لسان حالِهم أولاً ، ولسان مقالهم ثانيًا وليكون هو والذين معه منهم من الذين يعلِّمون النَّاسَ الخير ، فتكون جائزتهمْ أن يصلِّى الله تعالى وملائكته وأهلُ السّمواتِ والأرضِ عليهم كما جاء في نبإِ النّبوة .

روى الترمذي في كتاب (العلم) من جامعه بسنده عَنْ أَبِى أُمَامَةَ الْبَاهِلِىِّ قَالَ ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِى عَلَى أَدْنَاكُمْ**» .

==الجامع الصغير وزياداته حديث رقم (٢٩٦٥) وفي صَحيح الترغيبِ والترهيب حديث رقم (٢٥٢٠) وسلسلة الأحاديثِ الصحيحة حديث رقم (٢٧٦).

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِى جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ» .

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَمَّارٍ الْحُسَيْنَ بْنَ حُرَيْثٍ الْخُزَاعِىَّ يَقُولُ سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ يَقُولُ عَالِمٌ عَامِلٌ مُعَلِّمٌ يُدْعَى كَبِيرًا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ[1] .

ومِمّن عرَفَ فضلَ نسبِ العلمِ الإمامُ أبو حنيفة النّعمان ابن ثابت رضي الله عنه ، اتّخذَ لنفسِه تلاميذَ حملوا عنه ما جاد به الله تعالى عليْه ، فكانوا منه بمنزلةِ الولدِ ، فمنحهم من الوَصاةِ ما يمنحُه الوالدُ ولدَه منها ، وكان مِن الحُسْنِ أن أتلبَّث مليًّا لأتبصّر فِي ما حملته وصاةٌ أسداها لتلاميذِه لعلّي أَستطيع أن أحملَ منها ما ينفع في ما نحنُ فيه .

والله المُستعانُ على طاعتِه .

---

(١) ورواه الطبراني في المعجم الكبير . حديث رقم (٧٩١٢) وصححه الألباني في صَحيحِ وضعيفِ سنن الترمذيّ حديث رقم (٢٦٨٥) وفي صَحيح الجامع الصغيرِ وزياداته . حديث رقم (١٨٣٨، ٤٢١٣) وحسنه في تحقيقهِ مشكاة المصابيح . حديث رقم (٢١٣).

وغيرُ قليلٍ مِمّن يتصدرون الآن لتعليم طلابِ العلم أحوج إلى هذه الوصيّة من تلاميذهم ، فإنّي وثلّة منهم معي لفي عَوزٍ بالغٍ إلى ما فيها من معانِي الهدى ، وأدبِ الطريقِ إلى الله تعالى . .

من هنا آثرت التبصُّر في وصاته ، وفاءً ببعضِ حقه رضي الله عنه ، وببعض حق طلابِ العلم . والله المرجو عونه على كمال الإخلاصِ له سرًّا وعلنا وعلى إتقان العمل إيمانًا واحتسابًا .

وصلّى الله على سيدنا محمّدٍ وعلى آلِهِ وصَحبه ، وورثَته من أهلِ العلمِ وعلى أمته سلّم تسليمًا كثيرًا . الحمدُ لله رب العالمين .

تحريرًا في غرة ذي الحجة ١٤٣٨ هـ

الموافق

وكتبه

مَحمود توفيق مُحمّد سعد

almasry411@gmail.com

openkandil.com

obeikandl.com

نبذة عجلَى
عن صَانِعِ الوصَاةِ أبي حنيفة رضي الله عنه

النعمان بن ثابن بن زَوْطِي (بفتح الزاي ، وسكون الواو) مولى بني تيم وُلِدَ سَنَةَ ثَمَانِينَ ، تابعيّ : رَأَى سيّدنا عبد الله بْن الْحَارِث ابن جُزْء وسيدنا عبد الله بن أبي أوفى وسيّدنا أبا الطُّفَيْل عَامر ابن وثلة وسيّدنا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنهم .

وَرَوَى أَبُو حَنِيفَةَ عَنْ جعفر الصَادق رضي الله عنه ، وعن عَطَاءِ ابْنِ أَبِي رَبَاحٍ . وَعَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ وَنَافِعٍ وَسَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ وَأَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ وَعَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ وَقَتَادَةَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هُرْمُزٍ الأَعْرَجِ وَعَمْرِو بْنِ دِينَارٍ وحماد بن أبي سُلَيْمَانَ وَعَدَدٍ كَثِيرٍ .

صاحب مذهب في فقه الكتابِ والسّنة والنظر والقياسِ ، له مدرسة فقهية منتشر علمها في أنحاء الأرضِ ، كان تاجر حريرٍ ، وكان يرفض منح السلطان ، وكان واسع الرزق جوادًا ، يُعنى بتلاميذه ويرعاهم ، ليتفرغوا للعلم ، حمله الوالي على تولي القضاء فامتنع ، فضرب عليْه فأبى ، وحبس ، وقيل مات في حبسه

منه ، وكان قويّ الحجة ، من أحسن الناس منطقا ، قال الإمام مالك ، يصفه : رأيت رجلا لو كلمته في السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته ! وكان كريما في أخلاقه ، جوادا ، حسن المنطق والصورة ، جهوريّ الصوت ، إذا حدّث انطلق في القول وكان لكلامه دويّ .

من أشهر تلاميذه : مِنْ تَلامِذَتِهِ : ولده حماد ، والقاضي أَبُو يوسف يعقوب بْن إِبْرَاهِيم الأنصاري قاضي القضاة ، ومحمد ابن الحسن الشيبانيّ ، وزُفَرُ بْنُ الْهُذَيْلِ الْعَنْبَرِيُّ ونوح بْن أَبِي مريم الْمَرْوَزِيُّ ، وَأَبُو مُطِيعٍ الْحَكِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَلْخِيُّ ، وَالْحَسَنُ ابْنُ زِيَادٍ اللُّؤْلُؤِيُّ ، وَأَسَدُ بْنُ عَمْرٍو ، وخلق كثير .

وقال الشّافعيّ: النّاس عيال على مقاتل بن سليمان في التفسير ، وعلى زهير بن أبي سلمى في الشعر ، وعلى أبي حنيفة في الفقه ، وعلى الكسائي في النحو ، وعلى ابن إسحاق في المغازي .

ولمّا انتصبَ أبو يوسف للتدريسِ في زمن أبي حنيفة قبل أن يُعلمه ، أرسل إليْه أبو حنيفة خمس مسائل فقهية ، فأجاب أبو يوسف فخطأه أبو حنيفة وبين له الصواب ، فأدرك أبو يوسف أنه تصدى لما لم يبلغ فيه منزل الإحسان ، فعاد إلى الشيخ حتى نضج ، فأذن له .

وما هذا من أبي حنيفة إلا تعليمه له ألا يتولى عملا هو لم يتهيأ له ولم يشهد له أهل العلم به ، ولو سكت من لا يحسن عمّا لا يحسن لما كان خلافٌ كما قيل .

وتوالت الأنباء في كتبِ التراجم والأخبار بأن ابن هبيرة حمل أبا حنيفة على أن يلي القضاء ، فامتنع ، فلمّا أصر على الرفض ضربه مئة سوط كل يوم عشرة أسواط ، وأبو حنيفة صابر محتسب لا يلين . . وأُشخص إلى أبي جعفر المنصور في الكوفةِ ليتولى القضاء فيها ، فأبى ، فحلف عليه ليفعلنَّ ، فحلف أَبُو حنيفة أن لا يفعل ، فحلف المنصور ليفعلنَّ ، فحلف أَبُو حنيفة أن لا يفعل ، فقال الربيع الحاجب : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف! فقال أَبُو حنيفة : أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيمانِي ، وأَبَى أن يلي ، فأمر به إلى الحبس في الوقت .

ذهب أبو حنيفة بالربيع بن يونس حاجب «المنصور» إلى أن إبرار القسم لا يكون بسبب مكانة المقسِم (بالكسر) وإنما بمقام ما أقسم عليه من الحقّ ، فكان في ذلك درس لمثل «الربيع» ممَّن يبتلون بالقرب من أصحاب «السلطنة» الإمارة العامة على تفاوت مستوياتها ، فكثيرًا ما ترى بطانة ذي ولاية متسارعين للدّفاع عنه والدّفع عنه بالباطل دون تريث وتبصّر ما هو حق ، وكأنهم

يوقنون أنَّ ولاتهم يدور الحقَّ معهم حيث داروا ، فهم الحقّ ، والحق هم وهذا أنت واجده في عظم مجالس الولاة تجد ثلة (شلة) من المنتفعين يدفعون الحقَّ بالباطل .

قول الإمام أبي حنيفة : « أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيماني » لا يفهم منه أنَّ أبا حنيفة يلفتُ إلى القدرة المالية على التكفير ، بل هو يرمي إلى أن الخليفة هو الأقدر على أن يحنث في يمينه لأنه يمين على شر ، ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير ثم ليكفر عن يمينه ، فهو أقدر على ذلك لأنَّه حلف على شَيْءٍ غيره خير منه .

أمَّا أبو حنيفة فإنما حلف على شيءٍ هو الخير ، فهو ليس بأقدر على أن يكفر عن يمينه ، بل عليه أن يستمسك بما حلف عليه من الخير ، وقد فعل أبو حنيفة كذلك الرجال ، فاعتبروا يا أولي الأبصار .

ثم دعا به يوما فقال : أترغب عمَّا نحن فيه؟ قال : أصلح الله أمير المؤمنين لا أصلح للقضاء ، فقال له كذبت ، قال : ثم عرض عليه الثانية ، فقال أَبُو حنيفة : قد حكم علي أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء لأنه ينسبني إلى الكذب ، فإن كنت كاذبا فلا

أصلح ، وإن كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لا أصلح . قال : فرده إلى الحبس .

مقالة أبو حنيفة ضرب من المحاجة وافر الصدق والحكمة والبلاغة : أسس أبو حنيفة أمره على أن يتخذ من مقالة الخليفة حجة له : ألجأ أبو حنيفة الخليقة إلى أن يصفه بالكذب ، فلم يغضب أبو حنيفة واستثمرها في حكمة ، رآها نعمة أسديت إليه ومخرجًا له من ضائقته : بني على ما حكم به عليه الخليفة ما سعى إليه . حكم عليه الخليفة بالكذب فاستغلها : أبان له أنه إذا كان الخليفة صادقًا في حكمه عليه فأبو حنيفة صادق في أنه لا يصلح للقضاء ، فكل منهما صادق فيما قال !!!

إن كان أبو حنيفة قد كذب في ما أخبر به عن نفسه فقد أخطأ الخليفة في حمله على أن يتولى القضاء ، وهو كاذب ، أيصلح كاذبٌ أن يكون قاضيًا ؟! فكل من أبي حنيفة والخليفة لا يصلحان .

أبو حنيفة لا يصلح للقضاء لأن الخليفة حكم عليه بالكذب.

والحليفة لا يصلح للولاية العامة لأنه يريد أن يولي من ليس أهلاً . وذلك فساد وإفساد ، ومن فعل فليس أهلاً لأن يكون خليفة أو ملكًا أو رئيسًا .

كذلك صفع أبو حنيفة الخليفة بحكمته . صفعه بأنه ليس أهلاً لأن يكون خليفة لأنه يولي من ليس أهلاً .

وقول أبي حنيفة عن نفسه «لا أصلح للقضاء» هو فيه صادق والمعنى لا أصلح للقضاء في زمانك أيها الخليفة لأني لن أكون حرًّا ، فالقضاء عندك « مسيس » .

ولا أصلح للقضاء الذي تريده أنت أيها الخليفة : قضاء سمعنا وأطعنا ذلك تأويل قول أبي حنيفة عن نفسه «لا أصلح للقضاء» .

ونازله مرةً في أمر القضاء وأبو حنيفة يقولُ لأبي جعفر : اتّق الله تعالى ولا تُرعِي أمانتك إلا مَن يخاف الله تعالى والله ما أنَا بمأمون الرِّضا ، فكيف أكون مأمون الغضب؟! ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات أو أن إلى الحُكم لا اخترتُ أن أغرق ، ولك حاشية يحتاجون إلى مَن يكرمهم لك ، فلا أصلُح لذلك . فقال له : كذبت أنت تصلح ، فقال : قد حكمت لي على نفسِك كيف يحلّ لك أن تولي قاضيا على أمانتك وهو كذاب .

وكان أَحْمَد بن حنبل إذا ذكر ذلك بكى وترحم على أبي حنيفة ، وذلك بعد أن ضرب أَحْمَد .

وكان أبو حنيفة يناصر أبا الحسن إبراهيم بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب حين خرج على أبي جعفر المنصُور ، وكان يَجْهَرُ بِالْكَلامِ في نصرتِه جِهَارًا شَدِيدًا فَقُال له تلميذه زفر بن الهذيل :

وَاللَّهِ مَا أَنْتَ بِمُنْتَهٍ حَتَّى تُوضَعَ الْحِبَالُ فِي أَعْنَاقِنَا .

قَالَ : فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ كِتَابُ الْمَنْصُورُ إِلَى عِيسَى بْنِ مُوسَى أَنِ احْمِلْ أَبَا حَنِيفَةَ . قَالَ : فَغَدَوْتُ إِلَيْهِ وَوَجْهُهُ كَأَنَّهُ مُسِحَ ، قَالَ : فَحَمَلَهُ إِلَى بَغْدَادَ فَعَاشَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ثُمَّ سَقَاهُ فَمَاتَ ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ خَمْسِينَ ومئة من الهجرةِ وَلَهُ سَبْعُونَ سَنَةً .

وهي السنة التي مات فيها مقاتل بن سليمان المفسّر ـ وصاحب أول كتاب وصلنا في الأشباه والنظائر في القرآن والتي ولد فيها الشّافعي ، والجاحظ . وكلاّ منهما إمام في بابه وقد عاش الجاحظ بعد وفاة الشافعي نصف قرن . (٢٥٥هـ) [1]

---

(١) ترجمته في أخبار أبي حنيفة وأصحابه ، لأبي عبد الله الصَّيْمَري الحنفي (ت : ٤٣٦هـ) نشر : عالم الكتب ــ بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ ص٥ وما بعدها .

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي (ت : ٧٤٨هـ) تحقيق : عمر عبد السلام التدمري نشر : دار الكتاب العربي ، بيروت . الطبعة الثانية ، ١٤١٣ هـ (٩/٣٠٥) ==

نبذة عجلى عن راوي الوصَاة
قاضِي القُضاة أبي يوسف .

أَبــُو يوسف يعقوب بْن إِبْرَاهِيم بْن حبيب بن سعد بن بُجير الأنصاريّ . ولـد سنة ثلاثة عشر ومئة من الهجرة أي قبل وفـاةِ أبي حنيفة بسبع وثلاثين سنة وصحب أبا حنيفة سبع عشرة سنة .

حَــدَّثَ عَنْهُ : يَحْيَى بنُ مَعِيْنٍ ، وَأَحْمَــدُ بنُ حَنْبَــلٍ ، وَعَلِيُّ ابنُ الجَعْدِ ، وَأَسَدُ بنُ الفُرَاتِ ، وَأَحْمَدُ بنُ مَنِيْعٍ ، وَعَلِيُّ بنُ مُسْلِمٍ الطُّوْسِيُّ ، وَعَمْرُو بنُ أَبِي عَمْرٍو الحَرَّانِيُّ ، وَعَمْرٌو النَّاقِدُ ، وَعَدَدٌ كَثِيْرٌ .

==وسير أعلام النبلاء للذهبي . نشر مؤسسة الرسالة عام ١٤٠٥هـ ، ترجمة رقم (١٦٣) ٦/٣٩٠-٤٠٥ .

وتـاريخ بغـداد للخطيب البغــدادي (ت : ٤٦٣هــ) تحقيـق مصـطفى عبد القادر . نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت . الطبعـة الأولى ، ١٤١٧ هـ . ترجمة رقم : ٧٢٩٧ (١٣/٣٢٥-٤٢٦)

وكان الخطيـب البغـدادي متحـاملاً علـى أبـي حنيفـة جامعًـا مقـالات خصومه .

ولم يختلف يَحْيَى بْن معين ، وأحمد بن حنبل ، وعلي ابْن الْمَدِينِيّ فِي ثقته فِي النقل .

قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ : أَوَّلُ مَا كَتَبتُ الحَدِيْثَ ، اخْتَلَفتُ إِلَى أَبِي يُوْسُفَ .

وَكَانَ أبو يوسف أَمْيَلَ إِلَى المُحَدِّثِيْنَ مِنْ أَبِي حَنِيْفَةَ وَمُحَمَّدٍ .

قَالَ إِبْرَاهِيْمُ بنُ أَبِي دَاوُدَ البُرُلُّسِيُّ : سَمِعْتُ ابْنَ مَعِيْنٍ يَقُوْلُ : مَا رَأَيْتُ فِي أَصْحَابِ الرَّأْيِ أَثبَتَ فِي الحَدِيْثِ ، وَلاَ أَحْفَظَ ، وَلاَ أَصَحَّ رِوَايَةً مِنْ أَبِي يُوْسُفَ .

وَعَنْ يَحْيَى البَرْمَكِيِّ ، قَالَ : قَدِمَ أَبُو يُوْسُفَ ، وَأَقَلُّ مَا فِيْهِ الفِقْهُ ، وَقَدْ مَلأَ بِفِقْهِهِ الخَافِقَيْنِ .

وَعَنْ هِلاَلٍ الرَّأْيِ ، قَالَ : كَانَ أَبُو يُوْسُفَ يَحفَظُ التَّفْسِيْرَ ، وَيَحفَظُ المَغَازِي ، وَأَيَّامَ العَرَبِ ، كَانَ أَحَدَ عُلُوْمِهِ الفِقْهُ .

قَالَ يَحْيَى بنُ يَحْيَى التَّمِيْمِيُّ : سَمِعْتُ أَبَا يُوْسُفَ عِنْد وَفَاتِهِ يَقُوْلُ : كُلُّ مَا أَفْتَيْتُ بِهِ ، فَقَدْ رَجَعتُ عَنْهُ ، إِلاَّ مَا وَافَقَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ .

وهو أول من خوطب بقاضي القضاة ، وكان استخلفَ ابنه يوسف عَلَى الجانب الغربي ، فأقرَّه الرشيد عَلَى عمله . توفي عام

اثنيْن وثمانين ومئة من الهجرة بعد وفاة أبي حنيفة باثنين وثلاثين عامًا ، وكانت سنه تسعة وستين عامًا .

قال أبو حاتم : يكتب حديثه .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : صدوق .

وقال حفيد أبي حنيفة إِسْمَاعِيل بْن حماد بْن أبي حنيفة :

كَانَ أصحابُ أبي حنيفة عشرة : أَبُو يوسف ، وزُفَر ، وأسد ابْن عمرو البجلي وعافية الأودي ، وداود الطائي ، والقاسم بْن معن المسعودي ، وعلي بْن مسهر ، ويحيى بْن زكريا بْن أبي زائدة ، وحبان ، ومندل ابنا علي العنزي . ولَمْ يكن فيهم مثل أبي يوسف ، وزُفر .

وقال عمار بْن أبي مالك : ما كَانَ فيهم مثل أبي يوسف لولا أَبُو يوسف ما ذكر أَبُو حنيفة ولا ابن أبي ليلى ، ولكنه هُوَ نشرَ قولهما وبث علمهما .

وقال طلحة بن محمد بن جعفر: وأبو يوسف مشهور الأمر ظاهر الفضل وهو صاحب أبي حنيفة وأفقه أهل عصره ، ولم يتقدمه أحد فِي زمانه ، وكان النهاية فِي العلم والحكم ، والرياسة والقدر ، وأولُ من وضع الكتب فِي أصول الفقه عَلَى مذهب

أبي حنيفة ، وأملى المسائل ونشرها وبث علم أبي حنيفة فِي أقطار الأرض .

يقول أسد بْن فُرات : سمعتُ مُحَمَّد بْن الْحَسَن يَقُولُ : مرض أَبُو يوسف فِي زمن أبي حنيفة مرضًا خيف عَلَيْهِ منه ، قَالَ : فعاده أَبُو حنيفة ونحنُ معه ، فلما خرج من عنده وضع يديه عَلَى عتبة بابه . وقال : إن يمت هذا الفتى فإنه أعلمُ من عليها وأومأ إلى الأرض .

وقال بشر بْن الوليد : سمعت أبا يوسف يَقُولُ : سألني الأعمش عَن مسألة فأجبته فيها ، فقال لي : من أَيْنَ قُلت هذا؟ فقلتُ : لحديثك الَّذِي حدثتناهُ أنت ، ثُمَّ ذكرتُ لَهُ الحديث . فقال لي : يا يعقوب إني لأحفظُ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك فما عرفت تأويله حتى الآن .

قَالَ جَعْفَر بْن يس : كنت عِنْدَ المزني ، فوقف عَلَيْهِ رَجُل فسأله عَن أهل العراق فقال لَهُ : ما تَقُولُ فِي أبي حنيفة؟ فقال : سيدهم . قَالَ : فأبو يوسف؟ قَالَ : أتبعهم للحديث ، قَالَ : فمحمد ابْن الْحَسَن قَالَ : أكثرهم تفريعًا قَالَ : فزُفر؟ قال : أحدهم قياسا .

وقال حفيد أبي حنيفة عُمر بن حماد بْن أبي حنيفة عَن أَبِيهِ قَالَ : رأيتُ أَبَا حنيفة يومًا وعن يمينه أَبُو يوسف ، وعن يساره

زُفَر ، وهما يتجادلان فِي مسألة ، فلا يَقُولُ أَبُو يوسف قولا إلا أفسده زُفَر ، ولا يَقُولُ زُفَر قولا إلا أفسده أَبُو يوسف إلى وقت الظهر ، فلما أذن المؤذن رفع أَبُو حنيفة يده فضربَ بِهَا عَلَى فخذ زُفَر وقال : لا يطمع فِي رياسة ببلدة فيها أَبُو يوسف . قَالَ :

وقضى لأبي يوسف عَلَى زُفَر .

وقال ابن كرامة : كُنَّا عِنْدَ وكيع يومًا فقال رَجُل : أخطأ أَبُو حنيفة ، فقال وكيع : كيف يقدرُ أَبُو حنيفة يُخطئ ومعه مثل أبي يوسف وزُفر فِي قياسهما ، ومثل يَحْيَى بْن أبي زائدة ، وحفص بْن غياث ، وحبان ، ومندل فِي حفظهم الحديث ، والقاسم بْن معن فِي معرفته باللغة العربية ، وداود الطائي ، وفُضيل بْن عياض فِي زهدهما وورعهما؟

من كَانَ هَؤُلاءِ جلساؤه لم يكد يُخطئ لأنه إن أخطأ ردوه .

وقال حفيد أبي حنيفة : إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة : قَالَ أَبُو حنيفة يومًا : أصحابنا هَؤُلاءِ ستة وثلاثون رجلا ، منهم ثَمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، ومنهم ستة يصلحون للفتوى ، ومنهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى ، وأشار إلى أبي يوسف وزفر .

وقال يحيى بن يحيى النيسابوري : سمعت أبا يوسُف يقول عند وفاته : كل ما أفتيت به فقد رجعت عنه إلا ما وافق الكتاب والسنة .

وقال : اللهمّ إنك تعلم أنّي لم أجر في حكم حكمت [فيه] بين اثنين من عبادك متعمّدا ، ولقد اجتهدت في الحكم فيما يوافق سنّة نبيّك ﷺ وكلّ ما أشكل عليّ فقد جعلت أبا حنيفة بيني وبينك ، وكان عندي والله ممّن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه . [1]

* * *

(١) تنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ٥٣٥/٨ ،
ومناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه . للذهبي ، ١٤٠٨ هـ . ص : ٥٧وما بعدها
والعبر في خبر من غبر ، للذهبي . تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول . نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت . ٢١٩/١ .
ومرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لعفيف الدين اليافعي (ت : ٧٦٨هـ) عني به : خليل المنصور . نشر : دار الكتب العلمية ، بيروت . الطبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ ص ٢٩٧ .
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد العَكري الحنبلي (م.س) ٣٦٧/٢ .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لا بن خلكان (ت : ٦٨١هـ) تحقيق : إحسان عباس . نشر : دار صادر ـ بيروت . ٣٧٨/٦ .

نصّ الوصية

قال مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَفَّانَ الْعَامِرِيُّ ، ثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ حَمَّادٍ اللُّؤْلُئِيُّ ، ثَنَا الْحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ اللُّؤْلُئِيُّ ، سَمِعْتُ أَبَا يُوسُفَ ، يَقُولُ :

اجْتَمَعْنَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْهُمْ : دَاوُدُ الطَّائِيُّ ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مَعْنٍ ، وَعَافِيَةُ بْنُ يَزِيدَ ، وَحَفْصُ ابْنُ غِيَاثٍ ، وَوَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ ، وَمَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ ، وَزُفَرُ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ ، وَقَالَ : « أَنْتُمْ مَسَارُّ قَلْبِي ، وَجِلاءُ حُزْنِي .

وَأَسْرَجْتُ لَكُمُ الْفِقْهَ وَأَلْجَمْتُهُ ، وَقَدْ تَرَكْتُ النَّاسَ يَطَئُونَ أَعْقَابَكُمْ ، وَيَلْتَمِسُونَ أَلْفَاظَكُمْ .

مَا مِنْكُمْ وَاحِدٌ إِلا وَهُوَ يَصْلُحُ لِلْقَضَاءِ .

* * *

فَسَأَلْتُكُمْ بِاللَّهِ وَبِقَدْرِ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ جَلالَةِ الْعِلْمِ مَا صُنْتُمُوهُ عَنْ ذَلِكَ الاسْتِئْجَارِ

* * *

وَإِنْ بُلِيَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِالْقَضَاءِ ، فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ خَرِبَةً سَتَرَهَا اللَّهُ عَنِ الْعِبَادِ لَمْ يَجُزْ قَضَاؤُهُ ، وَلَمْ يَطِبْ لَهُ رِزْقُهُ .

فَإِنْ دَفَعَتْهُ ضَرُورَةٌ إِلَى الدُّخُولِ فِيهِ ، فَلا يَحْتَجِبَنَّ عَنِ النَّاسِ ، وَلْيُصَلِّ الْخَمْسَ فِي مَسْجِدِهِ ، وَيُنَادِي عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ : مَنْ لَهُ حَاجَةٌ؟ فَإِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ نادَى ثَلاثَةَ أَصْوَاتٍ : مَنْ لَهُ حَاجَةٌ؟ ثُمَّ دَخَلَ إِلَى مَنْزِلِهِ .

فَإِنْ مَرِضَ مَرَضًا لا يَسْتَطِيعُ الْجُلُوسَ مَعَهُ أَسْقَطَ مِنْ رِزْقِهِ بِقَدْرِ مَرَضِهِ .

* * *

وَأَيَّمَا إِمَامٍ غَلَّ فَيْئًا ، أَوْ جَارَ فِي حُكْمٍ ، بَطُلَتْ إِمَامَتُهُ ، وَلَمْ يَجُزْ حُكْمُهُ»[1]

* * *

(١) مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه ، لشمس الدين ، ١٤٠٨ هـ . ص: ٢٨

ما بُنِيتْ عليْهِ الوَصيّةُ

حين تنظرُ في حركةِ المَعنى الَّذي يجري في بيانِ هذهِ الوصاةِ تجدُها حركةً متصاعِدةً تجمعُ مِن فُنون التَّثقيفِ النَّفسيّ وإقامة المعالم على الطريقِ ما يجعلُ مَن أحسنَ التّلقّي استماعًا وفهمًا متضلِّعًا بما فيها ، مُستمسِكًا به ، مستثمِرًا ما فِيهِ .

بنَى هذه الوصيّة من فصلين كان الفصلُ الأوَّل فيها كالتَّمهيد والتوطئة للفصل الثاني الّذي هو مجال الوصية ومجلاها .

الفصل الأوّلُ : توطئة الوصية

جعله من ثلاثة :

المبحث الأوَّل : هو استهلالٌ كالمقدمةِ :

« أَنْتُمْ مَسَارُّ قَلْبِي ، وَجِلاءُ حُزْنِي ،

ورتب عليه أمرين الثّاني والثالث :

المبحث الثّاني : بيان ما فَعَلَ لهم :

« وَأَسْرَجْتُ لَكُمُ الْفِقْهَ وَأَلْجَمْتُهُ ، وَقَدْ تَرَكْتُ النَّاسَ يَطَئُونَ أَعْقَابَكُمْ ، وَيَلْتَمِسُونَ أَلْفَاظَكُمْ»

المبحث الثَّالث : شهادته لهم :

« مَا مِنْكُمْ وَاحِدٌ إِلا وَهُوَ يَصْلُحُ لِلْقَضَاءِ »

* * *

والفصل الثاني هو عمود الوصية :

وهو من ثلاثة :

المبحث الأول : وصيته لهم بصِيانة العلم عن الاستئجار .

« فَسَأَلْتُكُمْ بِاللَّهِ وَبِقَدْرِ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ جَلالَةِ الْعِلْمِ مَا صُنْتُمُوهُ عَنْ ذَلِكَ الاسْتِئْجَارِ »

المبحث الثّاني : المنهج عند إرغام السّلطان العالم على تولي القضاء .

« وَإِنْ بُلِيَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِالْقَضَاءِ ، فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ خَرِبَةً سَتَرَهَا اللَّهُ عَنِ الْعِبَادِ لَمْ يَجُزْ قَضَاؤُهُ ، وَلَمْ يَطِبْ لَهُ رِزْقُهُ .

فَإِنْ دَفَعَتْهُ ضَرُورَةٌ إِلَى الدُّخُولِ فِيهِ ، فَلا يَحْتَجِبَنَّ عَنِ النَّاسِ ، وَلْيُصَلِّ الْخَمْسَ فِي مَسْجِدِهِ ، وَيُنَادِي عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ : مَنْ لَهُ حَاجَةٌ؟ فَإِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ نادَى ثَلاثَةَ أَصْوَاتٍ : مَنْ لَهُ حَاجَةٌ؟ ثُمَّ دَخَلَ إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَإِنْ مَرِضَ مَرَضًا لا يَسْتَطِيعُ الْجُلُوسَ مَعَهُ أَسْقَطَ مِنْ رِزْقِهِ بِقَدْرِ مَرَضِهِ »

المبحث الثّالث : وهو بمثابة الخاتِمة للوصيّة : مبطلات ولاية السلطان وحكم القاضي :

« وَأَيَّمَا إِمَامٍ غَلَّ فَيْئًا ، أَوْ جَارَ فِي حُكْمٍ ، بَطُلَتْ إِمَامَتُهُ ، وَلَمْ يَجُزْ حُكْمُهُ »

* * *

كذلك ترى إحكامَه بناء الوصيّة على نحوٍ لا يتأتى لك أن تقدم نجمًا على نجم في أيِّ فصلٍ ، ولا أن تقدِّمَ فصلاً على فصل.

هذا النّظم الترتيبيّ كما يُسميه برهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) هو أعلى منزلاً من «النظم التركيبيّ» عندَه وإن كان النّظمُ التركيبيّ جليلاً في نفسِه[1] . على أني لا أذهب مذهب «البقاعي» فالنظم التَّركيبيّ هو الأعلى والأبسط فسطاطًا ، وقد نشرت في طلاب العلم بحثًا بينت فيه ذلك ، عنوانه «مستويات بناء صورة المعنى في العقل البلاغي» مجلة «جذور» (نادي جدة الثقافي الأدبي) .

ونحنُ ـ طلاّبَ العلمِ ـ أحوجُ ما نكونُ إلى أن نُنفِق مِن عُمُرنا وجُهدِنا في فقهِ هذه الوصاةِ وفهمِها ، والتّأدبِ بِها ، فهي تحملُ

---

(١) نظم الدرر من تناسبِ الآياتِ والسور لبرهان الدين البقاعي (٨٥٥هـ) تحقيق : نشر دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد . الهند . . ١١/١ .

لطالبِ العلم ما لو اتخذه لما رأيت يومًا فينا شيخًا من شيوخِ الفتنةِ والفجور كالذي تزدحم بهم وسائل الإعلامِ على نحو لم نرَ مثله من قبلُ .

وكأنّ الذي جرى في ديارنا كان من ثِماره أن يميز اللهُ الخبيثَ من الطيبِ ، وأن تتكشّف أستارٌ ، وتتعرَّى خبيئات ، وأن تظهرَ للنّاسِ حقائق أشباه الرِّجالِ .

واللهَ تعالى نسألُه حُسنَ الخاتِمةِ في الأمرِ كلِّه ، وأن نلقاه وليس في أعناقِنا ما لا يرضَاه من دَمٍ حرامٍ أو كلمةٍ فاسِدةٍ مفسِدة أو بَيْعَةٍ لظالمٍ فاجرٍ ، أو مناصرَةٍ لِباطلٍ أوْ سُكوتٍ عَن مُنكرٍ . إنّه ولي ذلك والقادرُ عليْهِ والمتفضّلُ به علينا .

* * *

فقه السّياقِ المقاميّ لِلوَصيّة

استهلّ تلميذُ الإمامِ أبو يوسفَ الرِّوايةَ بِبيان السِّياقِ المَقاميّ الّذِي أسدَى فيه أبو حنيفة الوصيّةَ إلى تلاميذِه ، فقال : « اجْتَمَعْنَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ »

في هذا الكشفِ عن هذا السّياقِ المقاميّ بيان لِمدَى حِرصِ طُلابِ العِلمِ على المُكث في مجلسِ الشّيخ مستشرفين مقدَمَه لِيحملُوا عنه ما يُجرِيه الله تعالى لهم في قلبِه ولسانِه من الحِكمةِ .

حمَلَهم أدبُ طلبِ العلم وحكمتِه إلى مناظرة ما هُم فيه مِن ضُر الشّتاءِ وبردِه القارص بِما يتطلَّعون إلى ما سَيحمِلونه من دِفْءِ العِلم والحِكمة المتوافدِ عليهم من شيخِهم ، فكان لهم من هذا عونٌ على أن يكونَ مُكثهم انتظارًا لمقدمِ الشيخ أحبّ إلَيْهم مِن كلِّ شيْءٍ .

ولا تَحسبَنّ أنّ انتظارَهم هذا سيُقضَى في ما لا ينفعُهم ، كما يفعل كثيرٌ من طلابِ العلم الآن حين يُرغمُون بصارم اللوائح والقوانين علَى انتظارِ أُستاذِهم .

مَا يكونُ لِمن كان في طبقة أبي يوسف ومن ذكرهم من أقرانِه أن ينفقوا جزءًا من عُمُرهم فيما لا ينفع ، وهم في مجلسِ يرقُبون فيه مقدمَ الإمام .

كيف يكونُ لهم أن يفعلوا ، وفيهم أبو يوسف الّذي يُحرّك بقلبِه ولسانه كلَّ ساكنٍ ، ويُؤجّجُ كلّ خامدٍ؟

عَلينا أن نتصوَّرهم وقد عَمدَ كلٌّ في نسقٍ أديبٍ أريبٍ إلى أن يضربَ بعقلِه ولسانِه في كلِّ مُعضلِة من معضلاتِ العلم ، ويعرض ما قام في صدرِه من التَّفكر فيها ، لا يحملُه على هذا رغبةٌ في إبراز الفضلِ والتَّميّز ، كيف ، وفي قلوبِهم وسمعِهم يقُوم فتيًّا ما رواه التّرمذيُّ في كتاب (العلم) من جامعِه بسندِهِ عَن ابْنُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

« مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ »[1] .

فمثلُ هذا المبتغَى بالعلمِ من عظيم الظلمِ له ، والظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، فحقّ العلم أن يستثمر فيما لا يحصّل إلا به : حسن الأدب مع الله تعالى إيمانًا واحتسابًا .

---

(١) حسنه الألباني في صَحيح وضعيف سنن الترمذي . حديث رقم (٢٦٥٤)

وإنّما يحمل تلاميذ أبي حنيفة إلى المدارسة والمناظرة في أثناء انتظاره أمران :

● رغبةٌ في أن ينقلَ كلٌّ إلى قلوبِ أقرانِه ما أحسن الله تعالى إليه به من الفهم ؛ لِتتَّسع أقطارُ ما يُستزرَع فيه ذلك الفهم ، فينمُو ويورقُ ويُزهرُ ويُثمرُ ، ثم لتكون له طرائقُ توثيق عديدةٍ متنوعة ، وهذا وجه من وجوه خدمةِ العلمِ ورعايته ، وكان الإمام الشَّافعيّ رضي الله عنه يقول : «**وَدِدت أنَّ ما مَعِي مِن العِلمِ عندَ النَّاسِ جميعًا ، ولا يُنسَبُ إليّ منه شيْءٍ**»

● والرّغبة في أن يَعرِضَ كلٌّ منهم ما عنده ليظهرَ لَه ما فِي فهمِهِ من النّقصِ والخللِ والدّغلِ والعَوج فيقومه قرينٌ له ، ويسدّده ، وبذلك يطمئنّ إلى صحَّةِ ما مَعه من الفهمِ حين ينقلُه إلى النّاسِ .

ذلك ما يحملُهم على التَّدارس وعرض كلٍّ ما معه مِن العلمِ على أقرانِه . وذلك من أدبِ طلبِ العلم وحكمتِه .

* * *

تبصّر في مقالة أبي يوسف : «اجْتَمَعْنَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ»

قوله : «اجْتَمَعْنَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ» فيه أنّ اجتماعهم ما كان إلامن أجل التلقّي عن الشيخِ ، فذلك هو الطَّلِبة ، وكلّ ما عداه

ليس بأهلٍ لأن يجمعهم . وإسناد الفعلِ إليهم آية على أن ذلك قد كان من كل واحدٍ منهم ، فهم سواء في الرَّغبة في ذلك .

وقوله : « فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ » إشارة إلى شدة المطر وديمومته ، ممّا كان يمكن أن يكون سببًا في ألا يجتمعوا ، وأن يؤجّلوا اجتماعهم يومًا آخر ، ولكنّهم لم يفعلوا لما يعلمون من أنّ الحكمة تقضِي بانتهاز الفرصة متى أمكن ، فإن الأعمار بيد الله تعالى ، وما يدريهم أيبقون إلى باكر ، أو يبقى شيخهم إلى باكر؟ اغتنام الفرص هو سنة الأماجد . ولا سيّما في طلبِ العلم .

وتبصّر قوله : « فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ » كان يُمكن أن يقولَ في جماعة من تلاميذه ، بيْد أنّه اصطفى هذه (في نفرٍ) ليلفتنا إلى أنّ كلاً قد نفرَ ممّا كان فيه ، إلى مجلسِ الشّيْخِ ، وكأنّ الذي كان فيه كلٌّ ونفر منه في مقابل ما هو إليْه نافر إنّما هو أمر لا يرضاه عاقلٌ أن يقدمه على مجلس الشيخ ، فكلُّ شيءٍ في منظور مجلسِه هو الجدير بأن ينفرَ منه ، ولذا تجدُ البيان القرآنيّ يعربُ عن السّعي في طلبِ العلم بالنَّفرةِ ، يقُول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٢)

في هذه الآية ما يحسنُ بكل ذي نظر وبصيرة أن يتلبث عنده ، من ذلك النفي في قوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ (التوبة:١٢٢) أهو نفي استطاعة أم نفي حسن؟ أي لا يستطيع أن ينفر كلّ المؤمنين أم ما يحسن بكل المؤمنين أن يفعلوا ، بل يقوم بذلك جمع ، وبغيرِه جمع؟

وقوله (لينفروا) ما الذي ينفرون منه ، وما الذي ينفرون إليه ؟ أهو نفر إلى الجهادِ أم إلى العلم ؟وما قيمة قوله (كافة) أيعادله قولنا (كلهم) أو (جميعهم)؟

وما وجه قوله (فَلَوْلاَ نَفَرَ) ؟ لم اصطفى هذا الفعل وهو أليق بحال الذهاب إلى الجهاد بالسيفِ ؟ وما علاقة هذا بالسعي إلى العلم؟ أكُلٌّ هو من باب الجهاد ؟ أهذا يلفتنا إلى ما رواه أبو داود في كتاب (الجهاد) من سننه بسنده عَنْ أَنسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ »[1]

وما وجه قوله (مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ) واصطفاء كلمة (فرقة) وهي تحمل معنى التفرق؟ أيراد إلى مفارقتها ديارها وأهلها ، وأموالها طلبًا للعلم ، وهي مفارقة حسية ومعنوية ، بحيثُ لا يكون في قلبِه تعلق بما فارقه من بلد وولد وأهلٍ ومالٍ وراحةٍ؟

---

(١) ورواه أحمد والنسائيّ والدارمي ، والحاكم في المستدرك وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود . حديث رقم (٢٥٠٤) وصحيح وضعيف سنن النسائي . حديث رقم (٣٠٩٦) وفي غيرهما .

إن تذكر ذلك في رحلة طلب العلم لذو أثرٍ حميدٍ بالغ بطلبِه وحسن تحصِيلِه وتوثيقهِ وفقهه ، واستثمارِه .

* * *

وتبصّر قولَ أبي يوسف (من أصحابِه) لم يقل من تلاميذه ، لأمرين رئيسين :

الأول : أنَّ تلاميذَ الإمام جـدٌّ كثير وأصحـابه منهم هـم الّذين لا يفارقون مجلس علمِه ، فما كلُّ تلميذ له بصاحب .

والآخر : أنّه كان يعاملهم معاملة الصاحبِ صَاحبه ، من رحمته بهم وشفقته عليْهم وديموميّة رعايته لهم وتفقد أحوالهم ، فهو يرعَى فيهم حقّ الصّحبة فوق حق التلمذة .

كذلك كان الإمام أبو حنيفة .

فهل لأحدٍ من صعاليك العلمانييّن وكلُّ علماني صُعلوك في باب العلمِ أن يقول عن أئمّتِنا بل عن الصحابة : هم رجالٌ ونحن رجال .

كأنّي بهم لا يعرفون معنى الرُّجولةِ مِن غباءٍ آخِذٍ بهم ، أوْ مِن أنَّهم ما رأتْ أعينهم فِي دُورهم وبيئاتهم ومجتمعاتهم رجلاً ، فظنّوا كلَّ ذكرٍ رجلا .

ذلك هــو السِّيــاقُ المقاميّ الّذي جــاءت فيه الوصِيّــةُ مِن أبي حنيفة لأصحابه .

* * *

obeikandl.com